الحضارات القديمة
فى القرآن الكريم
للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ١ —

ظهر الإسلام بين أمة وصلت فى البداوة إلى أبعد حدودها ، وكانت طبيعة بلادها تجعلها بداوة قاسية ، يشتد فيها النزاع والخصام بين الأفراد والقبائل ، ويكون السلب والنهب أظهر عمل فيها لكسب العيش ، وفى هذا تنتصر القوة الغاشمة ، ويظفر الباطل بالحق

وكان يحيط بهذه البداوة الغاشمة حضارتان مختلتان ، حضارة الفرس بالمشرق ، وحضارة الروم بالمغرب ، قد سرى الفساد فيهما حتى أنهكهما ، فلم يكونا أقل ضلالاً من تلك البداوة ، ولم يكن أهلهما أقل شقاء من أهل تلك الصحراء

فكان من أهم أغراض الإسلام القضاء على تلك البداوة وآثارها فى بلاد العرب ، وإنشاء حضارة جديدة صالحة للبشر عامة ، يرتفع فيها لواء العدل ، وينتصر الحق على الباطل ، وتنتشر المساواة بين الشعوب والأفراد ، فلا يظلم قوى ضعيفاً ، ولا يأكل غنى فقيراً ، وبذلك يسود السلام بين الشعوب بالمساواة بينهم ، وبجعلهم جميعاً عناصر لأمة واحدة لا يمتاز فيها شعب على شعب ، ولا تفرق بينهم الفوارق أيا كان أمرها

ولا غرو فى أن يكون مثل هذا من أغراض الإسلام ، بل لا غرو فى أن يكون هذا من أهم أغراضه ، لأن الإسلام يمتاز على غيره من الأديان بأنه لم يشرع للآخرة وحدها ، ولم يعمل لسعادة البشر فيها فقط ، بل شرع لسعادة الدنيا والآخرة ، وعمل على أن يكون البشر سعداء فى دنياهم ، قبل أن يكونوا سعداء فى أخراهم

وقد صرح القرآن الكريم بذلك الغرض العظيم فى بعض آياته ، فقال تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقد بين فى آية أخرى أهم شىء تمتاز به هذه الأمة فى حضارتها الجديدة ، فقال فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ؛ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »

ومما يتفق مع هذا كل الاتفاق ما جاء فى القرآن الكريم عن البداوة العربية وأهلها ، وما جاء فيه عن الحضارات القديمة وآثارها ، فهو إذا ذكر الأعراب — وهم سكان البادية — يكون شديداً عليهم ، ويجعل بداوتهم هى السبب فى جهلهم وانحرافهم . وقد وصفهم الله بقلة الإيمان فى الآية ١٤ من سورة الحجرات : قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم » . وإنما سميت هذه السورة بذلك الاسم لأنها نزلت فى نفر من الأعراب أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وهو قائل فى أهله ، فجعلوا ينادون من وراء الحجرات : يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه ، فأنزل الله فيهم من هذه السورة : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » وقد قيل إن هؤلاء الأعراب كانوا من بنى تميم ، وكان فيهم الأقرع بن حابس ، وعُيَيْنة بن حصن ، والزبرقان بن بدر ، فنادوا على باب الحجرات قالوا : يا محمد ، اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين ، وذمنا شين . فخرج رسول الله صلى الله عليه وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى مدحه زين ، وذمه شين . فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، جئنا نشاعرك ونفاخرك . فقال رسول الله صلى الله عليه : ما بالشعر بعثت ، ولا بالفخر أمرت ، ولكن هاتوا . فقام منهم شاب فذكر فضله وفضل قومه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس ، وكان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قم فأجبه ، فقام فأجابه . ثم قام الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مُطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع